

العوامل الخارجية لتطوير اللغة العربيّة

د. عبد الجليل مرتاض

سأحاول في هذا العرض أن أرسم الخطوط العريضة والمحاور الأساسية لعوامل التنمية اللغوية في العربية في شكلها الخارجي، لأنني أراها مشخصة فيذويها الاوائل وتاريخها ومراحل تطورها ومسارها وفي رجالاتها الذين خدموها وهذبوها عبر التاريخ العلمي لها.

1-الإبداع جزء من التنمية اللغوية:

مفهوم التنمية اللغوية عندنا مفهوم شامل رغم أنه يتصل باللغة اتصالاً وثيقاً، وذلك لا شيء سوى لان اللغة بوتقة تنصهر فيها كل مظاهر التنمية الصناعية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية الى جانب مظاهر الفكر الخلاق والإبداع الأصيل.

وتعتبر اللغة أعظم وسيلة مساعدة على الإبداع الفعلي والتبليغ العملي، بل كل إبداع مهما كان نوعه لا ينطلق أصلاً إلا من اللغة، ولقد اعتاد الناس أن يخدعوا فيجعلوا لكل فن من الإبداع وسيلته البليغة التي تعبر عنه، وهذا خطأ جسيم في هذا المفهوم، لأن النحت أو النقش والزخرفة والرسم... لا تستطيع الخطوط والألوان والسوائل وحدها تبليغها للناس رغم إحياءاتها التي لا تتكرر فضلاً عن صعوبة أو تعذر إحضارها في كل حين... كما أن الإبداع العلمي في الذرة وغيرها لا يمكن تبليغه برسوم غفل أو مرموز لها بحروف، وهذه الرسوم الهندسية لها لا ترجع الى عجز اللغة بقدر م اتعود الى غياب اللغة لدى المبدع لحظة الإبداع فتصير الرسوم كأنها جزء من اللغة..

ومن الأمثلة على غياب اللغة وقت الإبداع تعدد هذه المصطلحات العلمية لأن اللغة لم تصحفي كل حال هذه الأصناف من الإبداعات بل تتأخر أحيانا أو غالباً عن الشيء

المبدع، وهذه الظاهرة ليست خاصة بالفن والعلم وحدهما، بل قد تصدق على اللغة في حد ذاتها إل يسود لدى علماء لغتنا أن هذه المترادفات لاسم واحد أو المصادر والمتعددة لفعل واحد... ترجع غالبا الى تفسيرات اجتماعية وجغرافية أو لهجية، وهذا من إحدى الوجهات قد يكون صحيحا، ولكنه ليس هو الرأي الوحيد الذي يجب أن يظل سائدا فينظر يأتنا اللغوية مادام المسمى أي ما يبدع يسبق حتما الاسم، ولذا فإن المجتمع اللغوي المتفرق في مناطق جغرافية والمستعمل للغة واحدة، لا يسمى مدلولاً واحداً في لحظة واحدة مما يجعل هذا الوليد يأخذ أكثر من إشارة واحدة فور حضور اللغة، وكل هذه الإبداعات الفنية والعلمية ماهي إلا نمط وأنماط من اللغة، ولذا فلا يمكن استيعاب أي شيء أو تكوين أية حضارة.. إلا باللغة.

ولسنا بحاجة الى التذكير بأن الشعوب ما تقدمت وازدهرت إلا يتقدم وازدهار لغتها، وما تختلف إلا بتخلف لغتها هذا التخلف الذي تعد اللغة بريئة منه كل البراءة، بل يرجع الى عوامل خارجية ليس ذكرها هنا من باب موضوعنا.

2- التنمية اللغوية مرتبطة بالكل

والتنمية اللغوية ينبغي أن تتم في كل متجانس مع ممارسيها والباحثين بها وفيها، حتى وان اختلفت طرائف البحث، إلا أن الأهداف يجب أن تكون في نقطة الالتقاء واحدة بين كل أبنائها المتعاملين معها وبها في اطار رسمي وودوي، لأن شعوب اللغة واحدة حتى وان تباينوا ايديولوجيا وسياسيا فإنهم لا يختلفون كثيرا في مصير لغتهم المشترك ونظرتهم إليها حتى، وإن كانت الايديولوجية المتباينة قد تشكل خطرا على تنميتها

وسمعتها، ولكن في النهاية لن يكون هناك أي خطر مزمن من هذه الناحية، لأن اللغة ليست ملكا لأحد بل هي ملك للمجموعة، إذ بوسع أحد أن يتحكم في رقاب شعب ولكنه لا يستطيع أن يتحكم في رقاب جملة واحدة منها، ولئن سلط جبروته على حذر جانب معين من سلوك متكلميها فإن اللغة هنا لن تزيد إلا تنمية وانفجارا بواسطة الطبقات الشعبية وعباقرتها الذين اعتادوا سبرها والغوص على خصائصها.

ويبدو أنكل لغة إنسانية تتخذ طريق تنميتها في حدود طاقتها وقدرتها، فهي أشبه ما تكون بغلاف مالي مفتوح لإنجاز مشروع مغلق، ومن ثم كان التداخل اللغوي العالمي والاقتراض للمصطلحات العلمية والفنية والسلوكية في حكم ما يسمى بالتفاعل الحضاري الإنساني.

3- التنمية اللغوية والتعريب؛

وباب التنمية اللغوية مفتوح أبدا كما أشرنا أمام كل التيارات العلمية والثقافية لاسيما فيوقت تطورت فيه المواصلات السمعية البصرية، وتعممت فيه العلاقات الدولية، وتداخلت فيه الاحتياجات الحتمية المشتركة كالتغذية والقروض والتعاون والتصنيع ونحو هذا وهنا يكمن الخطر إذا لم نكن السباقين الى تنمية لغتنا بأنفسنا وإلا فقد بقينا في موقف دفاع منهزم ومشلول، لأن التعريب يجب أن يكون مرحلة انتقالية لتعويض غياب تنميتنا اللغوية في الماضي الذي لم يكن بأيدينا، وعلى هذا فينبغي أن نفكر من الآن في آفاق مستقبل هذه اللغة

بواسطة مجامعها اللغوية والعلمية لننتقل من عملية التعريب التي كادت تصير مرضا عضالا في عقول أبناء الوطن العربي الى معاملة لغتنا معاملة عادية مع حماية

وصيانة كل ما اكتسب فيها لاسيما الثابت والصالح أي المستعمل منها، لأننا نخشى أن نظل منشغلين بعملية التعريب هذه والتي لاتعد في نظرنا إلا عملية استراتيجية شبه دائمة، لأن ما نعرّبه اليوم قد يموت غدا بفضل ما يخترع يوميا من عشرات المصطلحات في العالم، والتي قد تتسخ أو تميت الكمات السابقة.

إذن، لنفكر في استراتيجية دائمة وقارة غير التعريب مع التفتح المستمر والإبقاء على الترجمة العلمية طبعا.

4- التنمية اللغوية ومجتمعها؛

ومن المطلع عليه مبدئيا ان اللغة تنمى في اتجاه مجالين اثنين لكونهما متجدين ومتكاملين، وقائم الواحد منهما على الآخر وهما العاملان الخارجي والداخلي، وهذان العاملان كلاهما يتفرع الى عوامل أساسية وجزئية غير منتهية بزمان ولا مكان ولا أفراد لأن المنظومة اللغوية ليست منظومة ذاتية فقط، رغم ما لها من مميزات ذاتية فعلا، بمعنى انها منظومة ذاتية ولكن يستحيل عليها أن تقوم بذاتها، وبالتالي فإنها لا تنتمى في مجال واحد فقط، ومن حيث المبدأ لا يجوز لنا أن نسمي أحدهما أساسيا وآخرهما ثانويا فهما بالتنمية اللغوية كالجسد والروح للإنسان لا يقومان إلا معا.

وإذا ما افترقنا فلن يكون هناك منظومة لغوية بالمعنى الشائع للغة بل لن يكون ثمت مجتمع بالمفهوم الشائع للمجتمع.

والملاحظ حتى الآن أن الهوية لا تزال سحيقة بين تنمية لغتنا في الوطن العربي ميدانيا وبين تنميتها نظريا، فهي في الأول يشكي منها قلة مصطلحاتها الحديثة، وفي الثاني لا أحد يقدر أن يجزم عن وصفها؛ اين هي منا أو أين نحن منها؟ وقد يحلو للبعض الآخر منا ان يشير الى غرابتها عنا أو غرابتنا عنها، لأنها لا تعاشنا ونحن لا نعيشها وإذا كنا نقبل مكرهين غرابتنا نحن عنها وعدم معاشتنا إياها في جميع احوالنا، فإننا نرفض بكل اباء اشارة غرابتها عنا كما لا نلومها في ضعف معاشتها لنا بسببنا نحن لا بسببها هي كلغة.

5- التنمية اللغوية في ظل منشئها البعيد:

والذي نعرفه أوليا عن العربية أنها تكونت أول ما تكونت ميدانيا رغم الأوضاع التاريخية والاجتماعية التي ميزت ممارستها قبل الإسلام خاصة فيما يتصل بالتجانس التنظيمي للقبائل العربية وكذا الانضباط القبلي العام المهدد في كل مرة بالانهيار أو العصيان زيادة على الانفصال السياسي والإداري والجغرافي والعصبي.... فأى اتصال بين ممالك عربية كالغساسنة في الشام المواليين لبيزنطة، وأخرى في الحيرة حليفة للساسانيين، ودولة عربية جنوبية بلغت ما بلغت من التحضر والعمران، وقبائل بدوية في قلب الجزيرة والحجاز لم يكن خائفة لهذا السلطان أو ذاك؟.

رغم هذه العوامل وغيرها فان العربية ظلت هي العربية عندهم، ولم يسمحوا إلا بالألفاظ زهيدة تدخل لغتهم، فهم كانوا يشتقون وينحتون ويقيسون منها ما يشاؤون، ولم يصلنا أبدا أي

مظهر من مظاهر الشك فيها أو التشكيلي منها، علما بان الاستعمال اللغوي يساوي السلوك الحضاري والثقافي في كل عصر ولدى كل أمة أصيلة تمجد كيائها وتغار على مقوماتها.

إن تاريخ التنمية للغة العربية لاشك أنه مرتبط بنشأتها وتوظيفها في الممارسات الوقتية لها في مجالي الفن والحياة، غير أنه من السابق لأوانه الاعتراف بصعوبة تحديد هذه التنمية تحديدا زمنيا مقبولا، وذلك لعدة أسباب، أهمها عندي.

1- استحالة تحديد اللغة اللسانية الأم تحديدا علميا حتى الآن رغم ميول جل الآراء العلمية النزيهة الى العربية.

2- طمس معالم هذه اللغة العتيقة تسجيلا أو انعدامها كتابيا إلا ما قبل وندر من نقوش غير مقنعة ومتضاربة مع ما وصلنا من تراثها المتوارث حفظا وسماعا.

3- صعوبة تحديد العصر الفصيح بعد استقلالها عن الساميات واتخاذها شكلا لغويا على النمط الذي وصلنا.

ولعلي لست بحاجة أكيدة الى إيراد ما يعرف المطلعون من روايات قديمة عربية تشير إشارات عابرة أو متعمقة الى هذه اللغة بيد أن واجب البحث يراودني على القول بأن المؤلفات اللغوية العربية المبكرة والتي سبقت زمانا وعملا المؤلفات الأدبية والنقدية لم تشر الى هذه المسألة، وكأنها كانت لديها أمرا مسلما به حتى كانت المؤلفات الفقهية المتأخرة نسبيا، ولعل خيرا ما فعلوا لان اعمالهم تلك كانت انجازات علمية تطبيقية في اللسان العربي.

وأقدم إشارة واضحة في هذه المسألة—ومن غير تفقه—ما نجده في طبقات ابن سلام التي جاء فيها قول يعزى الى يونس بين حبيب مفاده أن ((أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه اسماعيل بن إبراهيم¹ ويفسر ابن سلام هذه العربية بأنها اللسان الذي نزل به القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي (ص) ((وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا))².

وما وصلنا من أخبار عن العربية القديمة من أنساب وأشعار لا يتجاوز—حسب النظرية

العربية القديمة—معد بن عدنان الذي يوما الى وجوده قبل الميلاد بحوالي عشرة قرون، ولم يذكر معدا—فيما نكر ابي سلام—غير لبيد وأن مرداس³ مصرحا: ((فنحن لا نقيم في النسب ما فوق عدنان، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعرا))⁴.

ونحن نشم من قول ابن سلام أنه لا يريد العربية كظاهرة اجتماعية صوتية ملفوظة بل كظاهرة فنية مكتملة في تلك الصورة القوية التي يمثلها الشعر الجاهلي ثم نصوص القرآن الكريم، أي لا يقصد التاريخ للعربية التي نشأتها وبلورتها أغمض من أية لغة سامية أخرى، وفي هذه الحيرة اللامتناهية يشير أحد الباحثين: ((ربما كانت العربية بدعا بين اخواتها اللغات السامية، وذلك لأننا نعرف من امر تاريخ اللغات شيئا يفوق ما نعرفه من بدايات العربية، أننا نعرف مثلا كثيرا من البابلية الآشورية والاكادية، كما نعرف قدرا عظيما من اللغة الإرامية ولهجاتها، وقل مثل ذلك عن نصوص اللغة العبرانية وسائر اللغات السامية الأخرى ما خلا العربية....))⁵.

هذا وأن الآثار اللغوية التي تترجمها النقوش المكتشفة المبعثرة على صخور هنا وهناك في شمال الحجاز وغيره يصعب على الباحث أن يعتمد عليها للوصول الى معرفة اللغة العربية الأولى بالدقة⁶ () علما بأن هذه النقوش العربية الشمالية المبكرة ((وصلتنا في الفترة الزمنية بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الرابع الميلادي، وليست هذه النقوش أقدم شيء وصلنا بالعربية...))⁷ .

غير أن النقوش الأقدم من هذه الفترة والتي تحتوي على سمات عربية مالا تجدي نفعا في الإفصاح عن طبيعة اللغة العربية التي نتوق توقنا الى معرفتها، ثم ان النقوش الشمالية من ثمودية وصفوية ولحيانية والتي تشترك كلها في خصائص مقاربة تجعل

((الباحثين يدرجونها في اللهجات العربية المبكرة))⁸ كتبت بالخط العربي واقدم نقش عثر عليه مكتوبا بالخط العربي العالي لا يتجاوز تاريخه سنة 512م⁹ بينما يرجع اقدم النقوش اليمنية المكتوبة بالمسند الى أوائل القرن التاسع قبل الميلاد، وأحدث ما وصلنا منه يعود الى أواخر القرن السادس بعد الميلاد¹⁰ .

وكان للمسند اثر حضاري ودور أولي في تنمية العربية الأولى رغم تباينها كلهجات شمالية وجنوبية مختلفة اختلافا لا يصل إلى درجة التوازي بينها، حتى خارج بلاد العرب نفسها كالأثار الموجودة منه في كل من مصر وجزيرة ديلوس اليونانية وبلاد الحبشة¹¹ فضلا عن تدوين الممالك العربية الشمالية به حضارتها وصفقاتها.

غير أنه أصبح مؤكدا مما لا يدع مجالا للشك أن القرن السادس الميلادي شهد مجموعة سكانية وسط شبه الجزيرة العربية وفي اطرافها وحدودها من الجهات الأربع، تتكلم

لغة واحدة متألفة في كل هذه الامكنة الجغرافية رغم تنافرهم فيما بينهم عصبيا واجتماعيا، ورغم البقايا اللهجة القبلية التي لاتزال ماثلة في التراث العربي الأدبي.

ولعلك ترى معي أن ربط التنمية اللغوية بهذه الفترة كلغة وظيفية لشؤون الحياة أكثر منها لغة فنية مسالة لا يمكن تجاهلها حتى وان جهلناها. لنقص النصوص من جهة وتعذر استتطاق بعضها من جهة ثانية، لان أهم ما في اللغة استعمالها دون السماح لأنفسنا بمحاسبتها أو محاسبة أصحابها في تلك الفترة السليقية البعيدة، ودون أن يغرنا كثيرا قول أبي عمرو بن العلاء: ((ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيتهم بعريبتنا))¹² لان أبا عمرو الذي كان أوسع العلماء علما في عصره بكلام العرب ولغتها وغريبها لا يريد إلا الفروق العامة التي عاينها بين لغتي الشعر الفني والقرآن من جهة وبين

بعض مظاهر لهجة حمير وأقاصي اليمن من جهة أخرى، أو يقصد بها البقايا اللهجية الحميرية العتيقة مقارنة لها بالعربية التي كانت في زمنه والا فكيف نفسر رواية أبي عمرو نفسه اللغة عن بعض أهل اليمن ومن الغلمان، ووصفه لبعضهم بالبراعة في العلم والأدب؟ من ذلك قوله في أخذ اللغة: ((رأيت باليمن غلاما من جرم ينشد عنزا، فقلت: صفها يا غلام فقال: حسراء مقبلة، شعراء مدبرة، ما بينغثرة الدهسة، وقنوء اللدبسة، سجحاء الخدين، خطلاء الأثنين، فشقاء الصورين، كأن زمنيها تتوا قلنسية، يالها أم عيال، وثمان مال))¹³.

وقال في مكان آخر: ((كان لرجل من مقال حمير إبنان يقال لاحدهما: عمرو، وللآخر، ربيعة، وكمانا قد برعا في الأدب والعلم))¹⁴.

ثم أننا لا ننسى أن هذه الظاهرة تمت في غياب دراسة أفقية أي تنمية داخلية للغة، ولم تستطع هذه الدراسة فيما بعد رغم شموليتها وصرامتها أن تحد من هذه الظاهرة بل نجدها قد استفحلت نظرا لضخامة العوامل الخارجية وتعددتها في البلاد العربية الإسلامية الجديدة مما أدى الى ظهور هذه اللهجات العامية التي نلاحظها في الوطن العربي بل على مستوى كل قطر واحد من الأقطار العربية، إن لم نقل على مستوى كل ولاية واحدة من كل قطر، ولذا فليس عجبا أن يصرح اليوم احد من عمان مثلا: ((ما لسان طرابلس واقاصي

شرح الكلمات:

حسراء: مقبلة قليلة شَعَرُ المُقَدَّم من رأسها.

العُنْثَرَة : عُبْرَة كَدِرَة- الدُّهْسَة : لون كلون الدَّهَّاس من الرمل لايبيلغزن يكون رملوليس بتراب ولاطين - القُنُوء : شدة الحمرة - الدبسة : حُمْرَة يعلوها سواد - سَجَّاء الخدين: حَسَنَتَهُمَا - خطلاء: طويلة الإذنين مُضْطَرِبَتَهُمَا-فشقاء : منتشرة متباعدة - الصُّوران: القرنان -الرُّنْمَتَان : المتعلقتان ما بين لَحْيِي العنزاء التنتوان - ذُوابِتا القَلَّسُوءَة : واحدتها تَنُو (الشرح من المزهر : 548/2)

شمال لبنان اليوم بلساننا، ولا عربيتهم بعريبتنا)) إذا كان تصريحه يعني به الموازنة بين العاميتين في هاتين المنطقتين.

6- التنمية اللغوية في ضوء خطابها الشفوي الشعبي:

ان آثار النقوش المشار إليها آنفا لا تمنعنا من أن نطلق على التنمية اللغوية عند العرب قبل الإسلام وبعده بقليل بأنها (تنمية تواصلية وعملية مباشرة ومسموعة) وهذا لا يعنينا هذه التنمية اللغوية التي كانت تقوم على التواصل الشفوي كانت تنمية شبه فوضوية أو كانت تقوم على الصدفة بدعوى ما قد نعثر عليه من هفوات لسانية عامة وردت لدى جل الفحول اللذين يعدون أول مصدر ثقة لهذه التنمية في الوقت الذي يعلم فيه كلنا بطبع ذلك المعبر العربي على سجيته دون قاعدة ترعجه ولا عالم ينبهه الى جانب ان المعبر لم يكن يبني ويصنع بمعزل كلي عن المؤثرات العامة الخارجية لمحيطه.

ولم يعد اليوم صعبا علينا أن نجزم بان تلك التنمية اللغوية الشاملة قبل نزول القرآن وتسجيله وبداية عصر التدوين والتي لم تكن تخلو أحيانا من بعض الفوارق اللهجية القبلية الموروثة عن عهد ما قبل العربية القديمة، كانت تخضع في تنميتها العامة ومن الداخل لمنهجية تواصلية بدوية واحدة سواء اعتبرنا مقتضيات هذه المنهجية التواصلية عفوية ام اصطلاحية أم تعليمية أصاغر عن أكابر... حتى وان كنا نتجنب قصدا الدخول في خضم مثل هذه المتاهات الفلسفية اللغوية العقيمة.

ومن المؤكد في هذه التنمية أنها كانت تنمى عندهم ميدانيا أفقيا وعموديا في الآن ذاته، بمعنى أنها لم تكن تنمى مستقلة عن الواقع المعيش والتجربة اليومية والوظائف الممارسة

والمعاينة في المحيط البيئي الاجتماعي الذي يحتاجه الكائن العربي لضرورات وجوده واستمراره،^{١٠}

واعتقد أن الأمثال الشعبية تقفنا على أصدق الميادين اللغوية ومجالاتها ومميزاتها، وإذا ما سمح لنا هذا العرض البسيط ان نفحص كتاب الأمثال لابي فيد مؤرخ بن عمرو السدوسي (195 هـ) فإننا قد نجد أبين مثال على خصائص واتجاهات هذه التسمية التي كانت ترتبط ارتباطا غير منفصل بالعادات اللسانية الشعبية العامة في العربية الفصحى غالبا، وبالعادات اللسانية الشعبية القبلية المحلية أحيانا، وبالتوظيف اللغوي الاحتياجي في كل حال، كما أنها لا تبتعد في مجملها عن القصص الشعبي الدال محتواه على العبرة والذكاء أو الغفلة وظروف تلك المعاناة الدالة على قساوة الطبيعة والحكمة والفضيلة أو الرذيلة، ومن ذلك مثلا قولهم:

(1) اقدح وأنت مسترخ، إقد حبد فلى في مرخ¹⁵

وهو مدح لما يشعل به النار التي تعد أمرا ضروريا للإنسان في طبخه ودفئه وسراه ليلا في الظلام، فلا عجب أن ينوه بها المجتمع العربي القديم ويمدحها ويحث على اختيار أحسن العيdan واكتشاف أجود الأشجار التي تساعد الزناد حتى يتم أذكاء النار للضيف النازل وللجائع الملهوف وللمقشعر بردا،... بسرعة فائقة. فجاء الأعشى وضمن هذا المثل منميا اللغة بفضلها من الداخل:

زنادك خير زناد الملوك، وافق منهم مرخ عفارا

ولو كنت تقدم في صخرة بنع حصاة لأوريت نارا¹⁶

ووصفوا النبع بأنه أقل الشجرنارا، ولذلك ضمنه الأعشى بيته للمبالغة وتعظيم

ممدوحه، وجاء الآخر، وهو ابن حرد التغلبيّ فضمنه بيته دلالة على ضعف الزند من كثرة الاستعمال إذا ألح عليه القادح¹⁷

يعلّو الأيام ينقصن عمره كما تنقص النيران من طرف الزند وتقول العريفي نفس

الموضوع المحوري: ((ورت بك زنادي)) و ((ورت بك ناري)) و ((أوريت بك زنادي))،

فجاء الشاعر المطبق اللساني الأول للعربية وقال¹⁸:

ورت بكعب بن زهير ناري ساعة تبدو أسوق العذارى

عقال الأسود بن يعفر لبني محلم ذاكر فضلهم عليه وأنجاهم للمستند¹⁹

قل لبني محلم يسيروا بذمة يسعى بها مذعور

لا قدح بعد اليوم إن لم توروا

ويعرف الجميع أن حياة العربي كانت تعتمد-فيما تعتمد عليه-كثيرا على الصيد، فوصفوا الفرس الماهر، والرامي الحاذق، وهو شيء لا يخفى على أي-مطلع على الشعر الجاهلي، كما أطلقوا أسماء على الحيل والحفر التي كانوا يهيئونها للقتل، من ذلك الزبية الخاصة بصيد الأسد، والقترة والناموس والبرأة لصيد الوحش، فجاء أبو النجم ووصف القترة:²⁰

بات إلى قترته طليحا كالسيد يخفى شخصه والريحا

والنفس العالي والشبيحا يأخذ فيه الحية النّبوحا

ثم يبيت عنده مسدوحا مهشم الهامة أو مذبوحا

في لجف غمّة الصّفيحا وخشب سطّحه تسطيحا

والطين من كفيّه والتمسيحا

وقال ايضا فيها:

في قتره لجّف من أقبالها وظاهر الطين على أخلالها

بات مع الحيات في احوالها تحكي لها القراء من عوزالها

جرّ الرّحى تجري على ثقالها

وقال فيها غير هذا هو وسواه من الشعراء.

كما أن الأحداث التاريخية أو الدينية لم تكن تمر عليهم مرّ السحاب ثم تنسى أو تهمل بل كانت تظل راسخة تحكي لجيل تلو جيل فيوظفها فحولهم وخطباؤهم الصاقع وحكماؤهم البلغاء لأبنائهم تذكرة وعبرة وتربية، من ذلك أن بكر ناقة النبيّ صالح -عليه السلام- الذي عقره قدار من ثمود ظل يوظف ويضمن أشعارهم وأمثالهم، فقالت العرب: ((اصابتهم راغبة البكر)) كناية عن هلاك قوم، فقال الأعشى:

بادوا فلما أن تآدوا قفّى على إثرهم قدار

وقال زهير معلقته:

وتنتج لكم غلمان أشام كلّهم كأحمر عاد ثم ترضع فتقطم

وقال آخر:

وقلت لقيس: إنك اليوم كائن علينا كما قفّى قدار على إرم

وبقي هذا التضمين يوحى للشعراء حتى ما بعد الإسلام كما في بعض شعر الأخطل:

وإن تذكروها في معد فإنما أصابك بالثرثار رغبة البكر

وكانوا يستغلون وقائعهم وإسارهم لتوظيفها ونسج الحكايات فيها، من ذلك ان قبيلة

عنزة أسرت حاتم طيء، فغزا رجالها، وترك حاتم مع النساء والرجال الضعفة فقالوا له:

أتحسنت غير؟ فقال؛ إذا لم عالبيشير، وإنما قالوا له؛ اتحسن تقتل الحبل؟ لأنه يقال عندهم أغرته (الحبل) إذا فتلته، ثم قالوا بعد ذلك؛ افصد لنا، فقام الى ناقة من نوقهم فعقرها فأوجعوه ضربا قائلين؛ أهكذا الفصد فأجابهم: هكذا فزدي (بالزاي) إنه أي هكذا فصدي أنا، لأن الفصد تعني أيضا ملء المصير دما ومن داج بغير أو فرس ثم يشوي فيؤكل حتى قالوا مثلهم الشهير: ((لم يحرم من فصد له))²¹. وقد يروى بالزاي وبقي هذا المثل حيا حتى ما بعد مجيء الإسلام حيث وظفه جرير (مستغلا إياه في آلة التعريض لأنّ هذا أدنى الكرم عند العرب إذا لم يكن له مندوحة منه، فضلا عن استغلالهم للأحداث اليومية المجربة عمليا سواء أكانت بسيطة أم عظيمة.

ونموا لغتهم في مجال الفلاحة والفواكه وما يتصل بهما من انواع وسحاب وبذر وقطف وسقي وصناعة، فيقولون: ((أوشم البرق)) ويطلقون هذه الصفة على العنب الأسود إذا لان وهم أن يطيب (أوشم العنب) وذلك إذا لان بعض الحبة من العنقود وتلون، وبعضها لم يلم ولم يسود بعد، وهو شيء واحد، بينما لا يقولون هذا للعنب الأبيض لأنه لا يحدث لونا سوى لونه، ولكنهم يقولون فيه؛ أرق إذا لان بعضه وبعضه غير لين²² ؛ ويقولون: اشد حمرة من مصعة والمصعة ثمرة العوسج وهي شديدة الحمرة، وقال ابن عنمة (شاعر مخضرم)²³:

ان كان كري واقدامي لفي جرد وسط العواسج اجنى حوله المصع

أما القصص الشعبي الذي يمثل اصدق وازهي صورة للأدب الشعبي لديهم، وما تمخض عنه من عادات لسانية شعبية محلية. فيقفنا عند القوم نثرا وشعرا ومثلا وحكمة ونقدا للمجتمع وطبائعه على شيء عجب قد يصرفنا عن الإيمان بأن العرب لم يعرفوا هذا

الصنف من الآداب على لسان الحيوانات والطيور والجماد إلا بعد أن ترجم إليهم كتاب الهند، والذي نؤمن به من صرف ولا تأثير أن العرب لو قدر لهم أن يعرفوا التدوين والكتابة في ذلك العصر لكانوا أسبق الأمم الى مثل هذه الأنواع الخالدة الفصيحة من الآداب.

وتمثيلا على هذا الضرب من التنمية اللغوية وما تأثرت به من تراكيب بليغة، فاني أنمذج بمثل مكون من كلمتين وهو: ((خامر يحضاجر)) ثم نتابع أشكال البناء والحكايات

حوله، ويقصد ب((حضاجر)) الضبع وذلك لعظم بطنها من قولهم: وطب حضجر، للعظيم الملائن ويقال لها: حضاجر حين تأكل الحمض وتشرب، فجاء أحد الرجاز وقال:

حضاجر لا تقرب المواسم

ثم قالوا لكل رجل واهن: ((خامري حضاجر)) وهما يحكونه على لسان الضبع ((إنها أخذت حملا لرجل فذهبت به الى غارها فأكلته هي وصاحبة لها، ثم أصبحت فتشرقت بفناء غارها ووضعت رأسها في حجر صاحبيتها تغليها، فأقبل صاحب الحمل ومعه الرمح، فقالت اختها: هذا رجل مقبل، فقالت الضبع تتشد شعرا:

لو أن ذا المقبل من خطابي من بعض من يعجبه شبابي

وهمشي بالليل واكتسابي

فلما داتا منها الرجل، ومعه الرمح خرقت، وغمضت عينها، وقال كن حلما كنه، فطعنها فقتلها.

وذكروا أنها التقطت خشفا، فطلبته الطيبة فوجدته معها فقالت الطيبة: ولدي، وقالت الضبع؛ ولدي، فاختصما الى الضبابي الحسيل، وكان حكم السباع، فقالت كل واحدة منهما: ولدي فأعطى كل واحدة منهما كفّ قمح، وقال: كلاه حبة حبة، وارقبا النجوم فإذا

أصبحتما فأخبراني أين سقطت النجوم؟ فأما الطيبة فأكلت حبة حبة كما أمرها ورقبت النجوم، وأما الضبع فرنها قمحته ونامت. فلما اصبحا قال للضبع؛ اين سقطت النجوم؟

قالت: ذهب خدع مذع ذا طار وذا وقع، وقال للطبية؛ كيف ذهب الذجوم ١٠ء قالت؛ ذهب غورا مورا غير بنات نعش شتون طورا، فدفع إليها ابنها.

وهي التي ابصرت الطبية على حمار فقالت؛ أردفيني فاردتها فقالت؛ ما أفره حمارك! ثم سارت يسيرا فقالت: ما أفره حمارنا! قالت لها الطبية؛ انزلي، قبل أن تقولي؛ ما أفره حماري! فأنزلتها....²⁴

والقصص المنسوجة حول الضبع متنوعة، وإنما احببنا أن نسوق هذه الأمثلة لنقف على خصائص هذه البنية اللغوية العامة في مثل هذه النصوص التي لم يبق لنا منها إلا نتف قليلة وقصيرة، حيث كان الشعر أوفر حظا وأغزر مادة ونوعا من البنية النثرية، حتى وإن كان العلماء والاعباريون يميلون الى أن ما وصلنا من الشعر أيضا لا يمثل إلا مادة يسيرة مما كان عندهم—كما سينار—.

إن هذه التواصلات الشفوية غير الفنية ليس بوسع أحد في غياب تراث موروث كتابة وتسجيلا ان يحصرها في غير الأغراض الأدبية الموروثة حفظا وسماعا، وبمثل هذه التواصلات الفنية الشفوية التي عملت أثرها المباشر في تنمية اللغة العربية دلالة ومفردات ونصوصا وحقيقة ومجازا الى جانب السمو الفني والإبداع الأصيل للشعر، ذلك المصدر المعول عليه أساسا منذ بداية تقعيد القواعد وتفسير القرآن الكريم، والذي لايزال يفرض نفسه علينا حتى اليوم لأن الشعر العربي رغم تطوره شكلا ومضمونا وخاصة منذ فجر عصر النهضة الأدبية فإن هذا التطور متفاوت تقديرا وتقويما بين الناس لا يستطيع

أن يقوم مقام ذلك الشعر القديم الذي ظل ولا يزال مصدر إعجاب وتقدير لدى العرب وغير العرب، وما السبب في ذلك إلا لأنه يشكل نقطة الإبداع المركزي الأصيل والطبع العربي القويم.

7- ظهور النماذج المنمّية للغة العربية

وتحديد قرن ونصف أو قرنين لهذا المصدر التنموي للعربية قبل حلول الإسلام أمو يتعلق ثقة وغريلة وسبر النقدة للنصوص الغنية التاريخية أكثر مما يتعلق بهذا المصدر باعتباره نمطا معيناً من الأداء الفني والتأليف الشفوي لنص أدبي في قالب مضمون محدد وفي إطار شكل تستحوذ عليه ألوان من النممة والزخرفة المطبوعة صناعيا خاصة وإن ابن سلام يصدر كتابه بقوله: ((نكرنا العرب وإشعارها والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرفها وأيامها، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب،... فاقترضنا من ذلك على ما لا يجهله عالم، ولا يستغنى عن علمه ناظر،...))²⁵. ثم يصرح بأنه اقتصر على أربعين شاعرا من الفحول المشهورين²⁶؛ في الوقت الذي يعترف بأن الشعر في الجاهلية عند العرب كان ((ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون، وإليه يصيدون))²⁷.

وينسب إلى عمر بن الخطاب أنّه قال: ((كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه))²⁸ ، ((فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلو بالجهاد وغزوا فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام، وجاء الفتوح، واطمأنت العرب الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، ألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك ونهب عليهم منه كثير))²⁹

والغريب أن قول ابن سلام قول فيه شيء من الارتباط، إذ هنا صرّح بأن العرب لم يؤولوا الى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب، ودون أن يعارض في الوقت الذي يصرّح مرتين على الأقل بأن الشعر ((قد تداوله قوم من كتاب الى كتاب، لم يأخذه عن أهل البادية وليس لاحد—إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على أبطال شيء منه—أن يقبل من صحيفة، ولا يروى من صحفي))³⁰ ويصرّح في موضوع آخر: ((وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول، وما مدح هو وأهل بيته به، صار ذلك الى بني مروان أو صار منه))³¹، إلّا إذا كانت هذه الكتب لا يعلم أصحابها ما فيها كقول الأول:

زوامل للأسفار لا علم عنده من جيدها إلّا كعلم إلّا باعر

لعمرك ما يدري المطي إذا غدا بحمالها وراح ما في الغرائر³²

أما أبو عمرو بن العلاء الذي يعد أبرز مصدر لتتمة العربية والذي قيل فيه ((لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد، كان ينبغي لقول أبي عمر وابن العلاء في العربية ان يؤخذ كله))، فقال: ((ما انتهى إليكم معا قالت العرب إلّا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم

علم وشعر كثير))³³

ومما يؤكد قول أبي عمرو قول انس بن مالك: ((قدم علينا رسول الله (ص) وما في الانصار بيت إلّا وهو يقول الشعر))³⁴ وهذه الشهادة لمدينة غلبت عليها الحضارة ولين العيش فما بالناس بالبادية؟ وقال الشعبي: ((ما أنا لشيء من العلم أقل مني رواية للشعر ولو شئت ان أنشد شعرا شهرا لا اعيد بيتا لفعلت))³⁵.

والذي يمكن قوله قطعا ان مصدرا من المصادر لم يعمل على تطوير العربية وتنميتها والحفاظ عليها قبل نزول القرآن مثلما عمل ذلك الشعر فهو لم يترك مجالا من القول أو الوصف إلا وولج ميدانه وصفا وتبليغا وتأريخا.. كما لم يدع موضوعا خاصا أو عاما يتصل بالعرب وحياتهم الدنيوية والتأملية والدينية والنفسية إلا وقد شحذه وألح عليه حتى صاغة وطوعه فصارت بفضل هذه اللغة مطواعة ذات قابلية معدة للتعبير عن كل ما يعترض حياة العربي من علوم وتجارة³⁷³⁶

بها من فضائل ورذائل والى اقتحام ميادين لها علاقة ما بسلوك الإنسان العربي وتصرفاته وآهاته وآماله وتطلعاته، وهنا كسبت العربية تأليفات معجمية جديدة دلت على قدرة هذه اللغة التي لم يعد الشك مطروحا فيها بقدر ما صار السؤال يخيم ويحلّق على أصحابها الذين أضحو بالنسبة إليها أشبه بالغرباء، وكأننا أمسينا مثل ذلك الوجع الذي أراد أن يسأل بعض العلماء بقوله: ((أسألك عن شيء من الغريب)) فأجابه: ((هو كلام القوم، وإنما أنت وأمثالك فيه غرباء))³⁸، بل ليتنا كنا كذلك غرباء فلا نلوم ولا نلام. وأين نحن من قول الرشيد للاصمعي: يا أصمعي ان الغريب عندك لغير غريب؟ فكان جوابه: يا أمير المؤمنين، الا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما؟..

إننا لا نستطيع أن نكون كلنا اصمعيين، ولكن لا احد بحول بيننا وبين ما تعلم الاصمعي واستنته وتلامذته، فابن خالويه الهمداني الذي يذكر بأنه جمع خمسمائة اسم للأسد ومائتين للحية وجمع غيره امثال حمزة الاصفهاني ما يزيد على أربعمائة للدواهي³⁹ لا يعد مبالغة في شيء، والمستشرقون لم يخفوا اعجابهم حيناً ودهشتهم حيناً آخر بمن فيهم

المحتقرون للعرق السامي بصفة عامة، وفي هذا يقول رينان المعروف بعصبيته على الساميين: ((أن لغويا من العرب كتب في متن اللغة رسالة نكر فيها خمسمائة اسم للأسد⁴⁰ الى جانب المترادفات الوفيرة في العسل والسبق وأسماء النبات والحجر... بينما نكر المستشرق الألماني هامر بير جستول انه أحصى الكلمات التي تتعلق بالحمل في أدب اللغة العربية فوجدها تبلغ 5744 كلمة، ولذلك فان رينان الفرنسي لا يخفي حيرته قائلا: ((إن مما يثير تجبي أن لغة كاللغة العربية قد نشأت في بلاد صحراوية كبلاد العرب تصل إلى درجة الكمال في خيام البدو))⁴¹ ثم قال ((من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحل، تلك اللغة التي

فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لنا في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة، لا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى، ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة) (⁴².

وليس سهلا أن تصدر شهادة عالمية مجن أرنست رينان الذي حط من قدر الساميين وتفكيرهم ومواهبهم، بل صارت اللغة العربية لدى بعضهم مضربا للخلود بخلود القرآن، من ذلك ان ((جون قرن)) كتب قصة خيالية ((بناها سياح، يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها، ولما أرادوا العودة إلى ظاهرو الأرض بدا لهم أن يتركوا هنالك أثرا يدل على مبلغ رحلتهم فتقشوا على الصخر كتابة اللغة العربية، ولما سئل جون قرن عن وجه اختياره للغة العربية. قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها وتبقى حية حتى

يرفع القرآن))⁴³ ، وليس عسيرا علينا أن ندرك ذلك الإدراك البعيد ما عناه جون قرن بقوله: ((حتى يرفع القرآن)) وكأنني به يشير إلى الآية الكريمة ((إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون))

وخلاب هذه المسألة في التواصل الإعلامي الشفوي المسموع أن التنمية الداخلية كانت تستجيب في كل حال لمحيط عوامل التنمية الخارجية، فتتفاعل التمتيتان انطلاقا من حكمة قيلت أو حكاية رويت أو أمثال ضربت أو أبيات شعرية مستملحة غريبة أعجب بها اللغويون يعد الإسلام فألقوا فيها وحولوها الى مؤلفات طوال، كما نجد ذلك في كتب المتقدمين والمتأخرين من أعلام اللغة والنقد والأدب.

8- استمرار الشعر في التنمية اللغوية ما بعد الإسلام:

ولم تنحصر أهمية هذا المصدر في تنمية العربية ما قبل الإسلام وحسب. بل استمرت هذه الأهمية وتقويت شوكتها ما بعده، لان نزول القرآن رغم تأثيره. اللامحدود في بعض الشعراء المخضرمين إلى درجة إن بعضهم لم يعد يفوه بيت واحد، فإنه لم يحل دون استمراره بل على العكس اظهر لمعتقي الدين الجديد أنهم لا يفهمون شريعة هذا الدين في غياب هذا المصدر اللغوي الثري باعتبار أن القرآن نزل ((بلسان عربي مبين)) أو كقوله تعالى: ((إنا جعلناه قرآنا عربيا))

وعلى هذا، لما جاء الإسلام عني بهذا المصدر عناية لم يظفر بها من قبل في أي عصر من عصوره، حتى أنه ليعزى إلى النبي (ص) أنه قال: ((أعربوا في كلامكم تعربوا

في كتابة الله))⁴⁴ ، بصرف النظر؛ ما المراد هنا بالإعراب إلا أنه حث مباشر للحفاظ على هذا المصدر الذي كان يشكل الصيغة الفنية والقالب البنيوي العام للعربية، وينسب للسيدة عائشة أنها قالت: ((رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم))⁴⁵

ولعل متتبعاً لكمي هذه يعتقد أنني أتحدث عن الشعر من أجل الشعر، وكأنّ الناس لا يعرفون أهميته أفضل مني، والحق أنني أتكلم عن هذا العامل لكونه مرتبطاً بتمية العربية أكثر من سواه من العوامل قبل نزول القرآن وإقامة التأليف والدواوين ثم لأنه يمثل العربية التاريخية لكل العلوم اللغوية التي أسست ورسمت فيما بعد، حتى ان ابن عباس لقال: ((إذا أشكل عليكم الشيء من القرآن فارجعوا فيه الى الشعر، فإنه ديوان العرب، وكان يسأل عن القرآن فينشد الشعر و سئل عن الزنيم فقال؛ هو الدعي الملتصق ألم تسمع الى قول الشاعر؛
زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الاكارع

وسئل عن قول عز وجل: ((والليل وما وسق)) قال: وما جمع، ألم تسمع الى قول
الواجز: اتل لنا قلائصاً حقائفاً مستوسقات لو يجدن سائفاً

وكان يفسر قوله: ((فإذا هم بالساهرة)) قال: بالأرض، ألم تسمع إلى قول أمية بن
أبي الصلت الثقفي: وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهم مقيم))⁴⁶

وعلى هذا، فإني انظر الى هذا العامل في سياق هذا الحديث نظرة علمية صرفاً لا
نظرة أدبية أو فنية عامة، وكانت هذه النظرة الأولى للعلماء المسلمين فيه ولذلك فلم يخلجهم

ولا يمنعهم ورعهم أن يحتجوا بأفحش بيت غزلي أو أقذع بيت هجائي وصولاً إلى إقامة قاعدة أو توضيح كلمة في الشريعة، وقل مثل ذلك بالنسبة للقراء والعلميين (علماء اللغة).

وحسب إطلاعنا أن ابن عباس يعد بحق أول مطبق لساني من الناحية الدلالية على الأقل نافع بن الأزرق وصحبه قد فرضوا عليه هذه المنهجية التي تفسر القرآن بمصادقة من كلام العرب وكان كما سئل نافع أبنعباس عن معنى كلمة في القرآن، فإنه لا يقتنع ويسأل: هل تعرف العرب ذلك؟ فيجيب ابن عباس: نعم وينشد استشهداً به على التفسير⁴⁷، فيقتنع الرجل، واستمر على هذا النهج الدلالي المعجمي الموازن حتى أتى على شرح حوالي خمس وثمانين ومائة مادة لغوية، وهذا ما يعرف بمسائل نافع بن الأزرق.

9- دور القرآن في تنمية وتطوير العربية:

ثم كان القرآن الذي يعد عاملاً حياً وميدانياً لسانياً معجزاً. ودل دلالة قاطعة على قوة العربية في التبليغ وطاقتها العالية والديناميكية. فجمع أخبار الأولين، ومنافع الدنيا والآخرة

وجزاءهما وعقابهما، ماديًا ومعنويًا، وظلت لفته تتحدى نهاراً العصور والاستعمار والمشركين، فلم يفلحوا في تعويضها لأنه محكوم بالوهن والضعف أمام القرآن، ولذلك فإن قول جون قون السابق ليس من قبيل الصدفة أو الخيال.

وكان القرآن حافزاً ومحفزاً لا مثيل له جعل كل الطبقات من العلماء والمختصين يدرسون ويتدارسون ثم يؤلفون ويبدعون ويذللون السبل لتنمية لغوية شاملة لاحقة في كل

الفنون والعلوم، حيث صنفوا المثير في مشكله وتفسيره، وغريبه ومعانيه ونزوله ومجازه (بمعنى الاصطلاح القديم)... وهلم جرا⁴⁸، فالقراء عنوا بضبط وتحرير كلماته، وأحصوا حروفه وكلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجدياته... مما سمح لولادة عدد هائل من المصطلحات الجديدة في العربية... وحسبنا تمثيلا على هذا أن نعرض عليكم بضعة سطور فقط في مذهب حمزة بن حبيب (156هـ) وهشام (245هـ) في الوقت على الهمزة؛ ((أعلم أن حمزة وهشاما كانا يقفان على الهمزة الساكنة والمتحركة إذا وقعت طرفا في الكلمة بتسهيلها ويصلان بتحقيقها، فإذا سهلا المضمون ما قبلها أبدلاها واوا في حال تحريكها وسكونها نحو قوله ((لؤلؤا)).. ولم يأت في القرآن ساكنة، وإذا سهلا المكسور ما قبلها أبدلاها في الحاليين ياء نحو قوله عز وجل: ((وهيئ لنا)) وإذا سهلا المفتوح ما قبلها أبدلاها في الحاليين الفا نحو قوله عز وجل: ((ان يشأ))،... والروم والإشمام ممتنعان في الحرف المبدل من الهمزة لكونه ساكنا محضا فإذا سكن ما قبل الهمزة وسهلاها القيا حركتها على ذلك الساكن واسقطاها ان كان ذلك الساكن اصليا غير الف نحو قوله تعالى: ((المرء)) و((دفع))، فإذا كان الساكن زائدا للمد وكان ياء أو واوا أبدلا الهمزة مع الياء ياء ومع الواو واوا وأدغما ما قبلها فيهما نحو قوله ((النسيء)) و((ثلاثة قروء)).... الخ⁴⁹.

أية لغة جديدة ثانية أو ثالثة... هذه في قلب لغة واحدة؟ هل لو قيض لأصحاب المعلقات أن يبعثوا أو تعوض عليهم كلمات من هذا النص يفهمونك؟ أننا نجيب قطعاً: لا،

ولنا ادلة علمية تاريخية تنفي هذا ⁵⁰ ثم كيف استطاع أولئك القراء المسلمون ومن بعدهما الفلغليون والنفدة... اختراع واستنباط هذه الالاف من المصطلحات الحيّة والخطيرة في زمن وجيز في الوقت الذي نقف فيه نحن اليوم مشدوهين أمام ما يقتضي همّا العصر للدلالة على مصطلحات جافة وعقيمة—وبالقياس إلى المصطلحات الأدبية وغيرها—كادت تعقدنا وتشكنا في أنفسنا وفي لغتنا؟؟.

بينما اشتغل النحاة والفلغليون بما ورد في القرآن من أسماء وأفعال... وتوسعوا في شواهد تطبيقا عليه، حتى انه ليقال أحصوا من هذه الشواهد ثلاثمائة ألف بيت من الشعر، ناهيك كلام العرب الآخر... والتفت المفسرون إلى ألفاظه ومعانيه... واتجه الأصوليون إليه يستنبطون منه الأحكام والأدلة العقلية... كما اتخذ الخطيب والواعظ مبدأ ونهاية خطابته وعظاته لما فيه من وعد ووعد وتحذير وتبشير... واعتمد عليه المؤرخ والجغرافي والفلكي والبحري وعالم الطبيعة... في استخراج الحقائق وتبسيط النظريات اما البلاغي والأديب والشاعر فاكثر القرآن فيهم لا يحتاج إلى إشارة أو دليل، كما أن القرآن نتج عنه ظهور هذه القراءات المتعددة له والمعترف بها دينيا لدى جمهور العلماء المسلمين بعد ميلاد الحديث الشريف ((انزل القرآن على سبعة أحرف))⁵¹ وهذه القراءات فضلا عن الدور الأكاديمي الذي دعمت به العربية تعد أهم مصدر لها ومن الداخل لأنها تتناول العربية ذاتها رغم الشواهد الخارجية التي رافقتها.

ثم أنّ العرب لم يعتادوا هذا الضرب من البناء في عربيتهم حتى أن بعض الأعراب كان أكثر كلامهم شعر؛ ⁵² فلما كان القرآن أيقظهم وهدهم إلى نمط جديد من التعبير لبداية عد جديد من التفكير والتحضر والتعامل لمواجهة العصر الجديد والحياة الجديدة، وما كان

ليقدر لهم أن يثبوا تلك الوثبة التاريخية لولا تلك التنمية اللغوية الشاملة والفعالة، لأنَّ العرب في جاهليتها كانت ((على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائهم وقرابينهم))⁵³ فلما جاء الإسلام نقلت من اللغة الفاظ من مواضع الى مواضع اخرى مثل المؤمن والمسلم والكافر والمنافق والفاسق والسجود والصيام والصلاة والزكاة...⁵⁴، فتعد هذه الكلمات ومثيلاتها العربية تنمية ازدواجية في عاملها الداخلي والخارجي ومن خلال العربية نفسها، هذه التنمية التي لم تعدها من قبل ولا من بعد، وظهر بعد ذلك بقليل ما يسمى في العربية بالمصدر اللغوي والصناعي.

10- آثار الخط العربي في التنمية اللغوية:

وليس من حقنا أيضا أن نتغافل عن اثر القرآن وتدوينه منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر في تطوير الخط العربي الذي اهتم به المدونون والكتبة للمصاحف والمترجمون والمعربون اهتماما جعل هذا الخط يصبح في فترة قصيرة مدارس فنية عجيبة، ووصلت هذه الخطوط أو الأقلام في المشرق وحده الى ستة عشر قلما، بينما ذكر ابن الصائغ (548هـ) أن عددها نحو ثلاثين قلما⁵⁵ وتعددت أدوات الكتابة ولوازمها لاسيما التقنن في صنع الأقلام وفق ما يتلاءم وكل خط.

ولم يؤثر الخط العربي في تنمية النهضة الأدبية والعلمية لدى العرب وحدهم فحسب بل تعداهم بفتياته وجماله إلى إعجاب الأوروبيين به إعجابا جعلهم يكتبون به شعارات دينية تتناقض مع دينهم ومعتقدهم، حيث ظهرت الكتابة ((العربية في صناعاتهم رغم جهلهم لها

وعدم فهم نصوصها، وتوجد عملة سكها ((أوفا)) ملك مرسية (757—796هـ) وهي تقليد تام لدينار عربي، وبها الكلمتان ((الملك أوفا)) بالحروف اللاتينية، وحولها كتابة عربية منقولة نقلا دقيقا نقرأ بها الشهادتين: ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون))⁵⁶ كما ظهر اثر هذا الخط واضحا على صلبانهم وفن تصويرهم وعلى عبااءات تتويجهم، مثل عبااءة تتويج الملك روجر الثاني في صقلية...⁵⁷؛ هذا في الوقت الذي تتعالى فيه أصوات مشبوهة من هنا وهناك داعية دعوات منهزمة الى كتابة العربية بالحرف اللاتيني، اقتداء ببعض الشعوب الإسلامية المؤلفة قلوبهم التي تراجعت، مع أنّ هذا التراجع عن الخط العربي لاتخاذ الحرف اللاتيني لم يغير من حالها شيئا أكثر مما لو أبقت على خط دينها وتراثها الإسلامي...

11- الفتوحات الإسلامية وصلتها بالتنمية اللغوية:

ومن عوامل التنمية الخارجية للعربية أيضا الفتوحات الإسلامية الواسعة والسريعة رغم ما كان لها من آثار متفاوتة على العربية بعضها سلبي وآخرها إيجابي، فالسلبي يتجلى في بداية ضعفها وظهور لهجات عامية مطعمة من اللغات المحلية المفتوحة وفقد السيطرة والمراقبة في تحركاتها ونطق الأشخاص مشرقا ومغربا وآسيويا وأوروبيا بها، أما الإيجابي فيتخلص في سعتها واستخدامها وتعدد الناطقين بها اختياريا وإقبالهم ذلك الإقبال الرهيب على تعلمها، لأن عدم الضغط على الشعوب المفتوحة مستوحى من الدين

نفسه هذا الدين الذي لم يكن يجبر شعبا ذا دين سماوي لاعتناقه إذا ما هو دفع الجزية، كما أنه لم يرغب قط معتقاً إياه من تعلم هذه اللغة وغم أما لغة دينه الجديد ولكن المسلم نفسه وبصورة تلقائية كان يجز في نفسه أن يبقى بينه وبين قرآنه وأحاديث نبيه حاجز اسمه الترجمة بلغته التي يفقهها.

12- أثر الترجمة في التنمية اللغوية:

أما عامل الترجمة من اللغات الأجنبية فقد كان عوناً كبيراً على النمو اللغوي خاصة وأنّ العرب قد ترجموا أول ما لم يكن عندهم معروفاً أو واسع المعرفة كالمنطق والفلسفة والطبيعات والرياضيات... هذه المعارف حتمت على المترجمين المهارة أن يولدوا العربية ويطوعوها، بفضل الجهود السابقة.

وكانت السريانية قبل الإسلام وبعده بقليل هي لغة السيادة في الشوق حتى ساد الشعور بأنّها ((أصلح اللغات الشرقية للتعبير عن المعاني الفلسفية والعلمية))⁵⁸ ولم تنطلق الترجمة انطلاقاً من الجادة إلا على عهد المنصور الذي شجع المترجمين وأجزل لهم العطاء وازدهرت في عهد الرشيد لكنها لم تبلغ ذروتها في عصر المأمون الذي يرجع إليه الفضل في إنشاء دار الحكمة ببغداد واستقدم علماء وباحثين أجانب عن العروبة والدين ليؤجروهم ويغريهم مادياً ومعنوياً لترجمة ما كان شائعاً من معارف ذلك العصر في الإغريق وبلاد فارس والهند.

لقد دخل اللغة العربية بفضل هذه التراجم مصطلحات علمية غزيرة ولكن فضل العربية في حد ذاتها لم يكن منعما لأنه لولا قدرة استيعابها لهذه الثقافات التي كانت تمثل الرقي

الحضاري الزاهي في ذلك العهد لما استطاعت أن تسع كل تلك المعارف للتعبير عنها بأساليب جديدة وعصرية تتلاءم ومعطيات تلك الثقافات الفلسفية والعلمية الأجنبية، وفي هذا المعنى يقول نولد كه المستشرق الألماني ((إن من الخطأ الشائع أن نظن أن العربية فقيرة لا تصلح لبحث الأمور المعنوية، فعلى العكس يندر أن نجد لغة أخرى كاللغة العربية تصلح لأن تكون وسيلة للتعبير عن الفلسفة القديمة وأصول حكمة الأولين))⁵⁹ وفي تأثر البلدان المفتوحة بالعربية وازدراؤها للغات الأبية العظيمة يقول نفس العلامة: ((إن اللغة اليونانية أم تؤثر الحياة الفارسية إلا تأثيرا سطحيا، ولكن العربية قد أثرت فيها كل التأثير، فتدينت إيران بالدين العربي والأخلاق والعادات العربية))⁶⁰ حتى وإن كنا نأخذ عليه قوله: ((الدين العربي)).

إن هذه الترجمة وما سبقها من معارف علمية عربية فإسلامية جديدة رفعت كثيرين من الباحثين العرب والمسلمين إلى استحداث ما يسمى اليوم عندنا بـ ((البحث العلمي)) حتى وإن كان شتان ما بين بحث تحدوه الرغبة في المادة، ويبق بحث تتمنى المادة أن تهرع وراءه يرضى الالتفات إليها، بمعنى أن البحث كان من أجل حب البحث خدمة للحضارة الإنسانية والمجتمع، هذه الخدمة التي نجدها بصفة خاصة معبرا عنها بنزاهة وببلاغة غير مجازية في كتابة الأستاذة الألمانية ((زيغويد هونكة)) في كتابة المصنف ((شمس الله تسطع على الغرب)).

إلا أن هذه الترجمة ما عثم أن خمدت شيئاً فشيئاً بعدما استوعب العرب النظريات العلمية التي سبقت نشوء إمبراطور يتهم وبعدها حل الإبداع والاختراع محلها، وتجاوزتها الأحداث العلمية وبعدها سقطت بغداد وحلول عصر الضعف وظاهرة انحلال الوجود العربي في المشرق وفي المغرب.

وكان علينا أن ننتظر عصر النهضة لتنشط الترجمة من جديد ويعيد التاريخ نفسه، بيد أن هذه الترجمة لم تتح منحى سابقتها من حيث النوعية المتخصصة بل راحت تترجم كل ما دبّ وهبّ بما في ذلك الفنون الأدبية والأشعار في الوقت الذي كنا ومازلنا أحوج ما نكون إلى ترجمة كتب علمية وتكنولوجية، فضاعت جهود كبيرة وأموال طائلة فيها لا ضائل وراءه إذا ما أخذنا عاهل الأولوية والتنمية السريعة بعين الاعتبار.

13- مفهوم التنمية بين الترجمة والتعريب:

ومع ذلك فيمكن القول بأن العرب قد فرقوا منذ الوهلة الأولى بين الترجمة من جهتين التعريب من جهة أخرى، وبين الدخيل من زاوية ثالثة، حيث اعتبروا هذه العوامل ليست بأقل أهمية من عوامل الاشتقاق والقياس والنحت والقلب ولإبدال في إنماء اللغة العربية الى جانب التدوين والنصيف طبعا، ولم يطيلوا الحديث كثيرا عن التعريب لإيمانهم بأن التعريب عملية لغوية علمية ليست أكثر، يقوم بها لغويون مختصون.

نحن إذا تصفحنا مثلا كتاب سبويه الذي يعد أقدم وأصح كتاب لغوي علمي، فأننا نجد صاحبه، يرسم ما يمكن تسميته اليوم بتعليمية لغوية علمية واضحة ودقيقة لا تتجاوز ثلاث صفحات⁶¹، مركزا حديثه فيها على ما قد يلحق الاسم الأجنبي المعرب من تغيير أو

حذف أو إبدال أو زيادة معللا في كل مرة وممثلا لكل نوع، وختم تعليمته بقوله ((هذه حال الأعجمية، فعلى هذا فوجهها))⁶²

أما نحن فقد؛ أطلنا الحديث عند أكثر من اللازم. وكأننا لسنا بعرب. حتى صونا نرتاب في أنفسنا؛ هل نحن نريد أن نعرب أم نتعرب؟ كعا اضحينا لا نميز كثيرا بين الترجمة من جهة والتعريب من جهة ثانية وكأنهما شيء واحد فتداخل المفهومين في أذهاننا ناهيك عن الدخيل، وليتنا قفينا آثار أسلافنا لإزالة مثل هذه الإشكالات.

وأخطر من هذا التعريب المزدوج على مستوى المؤلفات العلمية والرياضية المدرسية والجامعية، والتي تصادفنا بكثرة حتى لدى بعض الدول العربية التي تزعمت التعريب منذ عقود، حيث تكتب المعادلات والرموز والمصطلحات بالحرف اللاتيني الذي حروفه أقل من الحروف العربية والتعبير عنها بالعربية، ولعلنا لسنا بحاجة الى التساؤل: ما الأعوص والأحزن؟ التعبير بالرموز أم التعبير عن هذه الرموز وتبليغها؟ هذا مع عدم اقتناعنا للتعلمات التي يتعللون بها في هذه المسألة.

وقد يرى البعض ممن لا ينظر بعيدا أن هذه مسألة شكلية ليس غير، والحق أنها قضية جوهرية لأنها تتعلق بثقة الطالب والمواطن في لغة آبائهم وأجدادهم، وبتمتية اللغة من الداخل واثرائها بمصطلحات لا حصر لها، وبخدمة التعريب الذي يعتبر عملية لغوية كلية شكلا ومحتوى، فضلا عن فساد الفكر، وقتل الخلق وبث روح الإتكالية دوما على كل ما هو أجنبي حتى في الرموز والأشكال.

فالمنهج القديم منهج علمي وسديد، وكان يعني واجهتين:

التعريب للمصطلحات الأجنبية بالطريقة اللغوية التي أوماً إليها سيبيويه أو إحلال العربية محل اللغات الأجنبية، وهذه هي العملية التي سادت- أو بدأت على الأقل- منذ أمر عبد الملك من مروان التاريخي بتعميم استعمال اللغة العربية في جميع الخدمات كالبريد ودواوين الخراج، ثم ما لبثت الأقاليم الإسلامية الأخرى أن تعربت في فترات متفاوتة كبلاد مصر والأندلس وأقطار المغرب.

وكان التعريب في أقطار المغرب أسهل من أي قطر آخر—ماعدا الشام والعراق— فتحة العرب، لأن اللغة الكنعانية دخلت هذه الأقطار منذ حل الفينيقيين سنة 814 ق م ثم تحولت الى لغة بونيقية اتخذت هويتها مع اللهجات المغربية، وعلى هذا فإن العربية لم تدخل هذه البلدان من باب ضيق أو غريب، فكيف لو اضيفنا إحدى النظريات التي تزعم بأن أفريقيا الشمالية قد تكون المواطن الأصلي للساميين الأولين؟

14- التنمية اللغوية على ضوء التعريب في الجزائر

ومنهجية التعريب لدينا في الجزائر لاتزال تحترم هاتين الواجهتين القديمتين، لأنها تعني بالتعريب إحلال اللغة الوطنية التي هي العربية محل اللغة الأجنبية، كما يعني التعريب عندنا التفتح على الحضارات الإنسانية المتقدمة وتكوين المصطلح المناسب لكل ما هو أجنبي، ونحن نستبشر خيرا بكتبنا العلمية التي تحاشت الى حد ما الرموز بالحرف اللاتيني، ولعل مجمع اللغة العربية الناشئ سيحدد أكثر وضوحا هذه النظريات، ويقول فيها قوله علميا

وعمليا، كما عودتنا الإرادة السياسية في الجزائر خاصة منذ عام 1980 اثر قرارات اللجنة المركزية الداعية الى تعريب العلوم الاجتماعية كلها في الجامعات والمعاهد العليا خلال أمد قريب وهذا ما تم فعلا، بينما اعتمدت التعريب العمودي أي التدريجي في الفروع العلمية والتكنولوجية، الشيء الذي نمى العربية في هذا القطر تنمية أصيلة وأثرها بمصطلحات معجمية جديدة في ظرف قصير رغم مآثر الاستعمار السوء والشائكة، وأما دون الجامعي فإن تعريبنا بدأ أفقيا ما بعد الاستقلال، وفي أوائل السبعينات، ومنذ ظهور قرار: 16 أبريل 1976 الخاص بالمدرسة الأساسية صار هذا التعريب عموديا ومنتظما.

وعلى مستوى الوطن العربي يعتبر محمد على أول رائد مسؤول في هذه العملية إذ أمر منذ عام 1826 بتعريب كليتي الطب والهندسة محاربة لسياسة التتريك، لكن منذ السبعينات من نفس القرن استعيز عن العربية بالغة الإنجليزية⁶³، بينما تم تعريب الطب في دمشق من عام 1919 وهي نفس السنة التي شهدت ميلاد أول مجمع عربي، غير أن اعتماد العرب على اللغتين الفرنسية والانجليزية وحدهما غالبا بدل الترجمة من لغات حية أو متقدمة أخرى جعل تبعيتنا التكنولوجية المزمنة ثقافية وسياسية أكثر منها علمية محضة.

15- رأي في شروط التنمية اللغوية العربية:

وباختصار، لن يكون هناك أي تعريب-في نظرنا-كاملا إلا إذا توفرت شروط أهمها فيما أرى:

1- الإرادة السياسية قبل الارادة العلمية

- 2- التنسيق العلمي والتنفيذ العملي
- 3- اعتبار التعريب عملية إستراتيجية انتقالية حتى نكون دوما عالة على غيرنا.
- 4- الإيمان بتعريب فكرنا قبل تعريب لساننا وثقافتنا، لأن الفكر ملكنا، والثقافة عنصر مشترك بيننا وبين سوانا من الأمم والشعوب.
- 5- عمليات التقويم المستمر والمراقبة الصارمة.
- 6- العامل الحضاري والتكنولوجي الزمني ينبغي أن يكون ثانويا أو مؤقتا لا أساسيا أو ((كمسماز جحا)) كما نقول بعاميتنا.
- 7- التنقيب في التراث المهيا قبل الإقدام على الترجمة أو التعريب.
- 8- شحن الكلمات العربية المهمة حتى الآن شحننا يقترب من المعنى العام لما هو مستعمل ومخترع في آن واحد، لأن لغتنا لا تزال تختزن سبعين ألف كلمة، كما ذلك الشيخ أحمد الأسكندري⁶⁴ مما ليس مستعملا.

16-المجامع اللغوية والتنمية في العربية:

إذا كانت الأذهان قد غامرتنا فكرة إنشاء مجمع لغوي عربي نحو سنة 1870 فإن أول مجمع ألماني ظهر عام 1617 بينما ظهر المجمع اللغوي الفرنسي عام 1734⁶⁵.

ومنذ إنشاء مجمع اللغة العربية بدمشق وهو يؤدي رسالته العلمية فقام بإنشاء كلية اللغة العربية من عام 1924، ونشر الثقافة بين الخواص والعوام، وأسس المجلات، وحقق وطبع مخطوطات تراثية ساهمت في إيقاف العربي على تراثه الغني والعلمي، وألف المعاجم وكتب المصطلحات.

أما مجمع اللغة العربية بالقاهرة فقام منذ وجوده بعدة أعمال علمية وثقافية عامة لما كان يتمتع به أعضاؤه من ثقافات قوية وواسعة ومتعددة، فعني بالمصطلحات العلمية، وشكل لجانا من العلماء والمختصين في كل الاختصاصات العلمية العصرية، وحسبنا أن ننكر أن عدد المصطلحات التي أقرها هذا المجمع تجاوزت خمسين ألف مصطلح في علوم مختلفة، ونشر فيها سبعة عشر مجلدا⁶⁶ الى جانب اصداره بعض المعجمات العلمية المتخصصة مثل معجم الجيولوجيا سنة 1965، ومعجم الفيزياء النووية سنة 1974 والمعجم الجغرافي عام 1975، وقام منذ سنوات بإعداد معاجم أخرى في الطب والبيولوجيا لطبعها ونشرها⁶⁷ علاوة عن الكب التي حققها ونشرها في التراث العربي الإسلامي وعن الأبحاث العلمية الأكاديمية التي كان نشرها تباعا في مجلة المجمع.

أما في العراق وبعد محاولات متعددة ومنذ عام 1921، فقد تأسس هذا المجمع عام 1947، وشمر المجمع عن أفكاره وجهوده، واستطاع أن ينثر في ظرف قصير أكثر من عشرين مجلدا الى جانب ما حقق ونشر من كتب علمية وتراثية،... واحداثها مجمع اللغة العربية الأردني الذي ظهر عام 1976،... ثم مجمع اللغة العربية الأردني وآخرها مجمع اللغة العربية الجزائري خلال هذه السنة.

وما نسجله هنا تشتت بعض جهود أعضاء هذه المجامع التي كان هدفها العميق واحدا، ولذا فينبغي أن تكون النتيجة واحدة لأن المصير القومي مشترك أرضينا أن سخطنا فالمتربصون باللغة العربية الدوائر لا يرضيهم أن تأخذ مكانتها العلمية والعالمية، وعلى المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي المقام حاليا في الرباط أن يؤدي دوره في مجالات التنسيق حتى تتضافر الجهود المبعثرة من هنا وهناك لتصير في النهاية جهدا واحدا.

وذكرنا دور المجامع اللغوية في التنمية لا ينسينا أن نومي من قريب الى مؤسسات علمية وثقافية وجمعيات أسست؛ فمنها جمعية المسلمين الجزائريين التي انشأت صحفا ومجلات وأقامت مدارس في هذا القطر الذي كانت كلمته مكبلة ولغته حراما يعاقب عليها قانون الاستعمار... ومع ذلك جابهت بكل شجاعة أدبية وجهود عصامية كيد الفرنسية والمسخ والتشويه في عهد قويت فيه شوكة الاستعمار وأساليبه الثقافية الفعالة أمام شعب سلط عليه الجهل والتخلف... وهناك معاهد عربية مختصة أنشئت في هذا القطر أو ذاك مثل معهد المخطوطات العربية، ومعهد الدراسات العربية العالية ومقراهما القاهرة،

والمعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط، ومركز اللغة العربية بالرياض... واتحاد المجامع العلمية واللغوية العربية، فضلا عن الدورات والندوات والمشاريع لتحديث اللغة العربية وإثرائها مثل الإنماء العربي ببيروت، وكنا المؤتمرات التي كان أولها سنة 1961 بالرباط وثانيها في الجزائر العاصمة عام 1973، وخامسها وآخرها حتى الآن في بغداد عام 1978⁶⁸.

والخلاصة التي وقفت عليها بعد إطلاعي على هذه الجهود المبذولة خلال هذا القرن ان الباحثين العرب يعترف لهم بكل فضل لأنهم خدموا هذه اللغة بصدق وحماس، وساهموا مساهمة عظيمة في تنميتها... ولكن السؤال المطروح؛ هل استغلت هذه الثروة الهائلة من المصطلحات ووظفت في مجالاتها العلمية والتقنية؟ وهل قام مكتب التنسيق المقام في الرباط بدوره الفعال بين الدول العربية في توحيد المصطلح أم أننا نتجه إلى لهجات قبلية جديدة من المصطلحات؟.

على أي حال، إن هذه المجامع والمؤسسات والاتحادات نريد. لها المزيد من العناية بها وتنشيطها وتشجيعها، من لدن الأفراد والحكومات حتى تقوم بدورها الطلائعي في تنمية العربية تنمية عصرية تقوم على الإبداع والتأصيل أكثر مما ترتكز على الترجمة والتعريب.

17—أهم ما تصطدم به التنمية اللغوية في الوطن العربي؛

وليس من المنطق حصر كل العوامل الخارجية التي تساهم في التنمية اللغوية سلبا وإيجابا، ولكني فيما أعتمد قد أشرت الى معظمها وأخطرها، غير أنّ هناك عوامل أخرى لا يجوز لي أن ادعوها عوامل ثانوية، وهي التي قد يصبح بعضها في وقت من الأوقات ولدى جيل من الأجيال أساسية، ومن أبرزها فيما يبدو لي:

1- الإعلام اللغوي

2- التمدرس

3- التشخيص للغة

4- التساهل اللغوي المفرط في بث الرسالة أو تقبلها

5- المسرح والسينما، وهما كارثة العرب في عريبتهم.

ومرض هذه العوامل إذا لم تؤخذ فيها صرامة لغوية عاجلة فإنها ستأخذ اللغة الى الحضيض رغم الجهود العلمية والإرادات السياسية والفكرية المبذولة في فائدتها.

18- التسامح اللغوي خطر على التنمية اللغوية:

ومما هو ملاحظ ومؤسف أن العوامل الخارجية اصبح من العسير بل من المستحيل من الآن أن تراقب وتتجر، فحملة العربية وحفظتها وجماعها والمقعدون لها من جميع الطبقات منذ صدر الإسلام حتى عهد نشوء الدويلات كانوا يراقبونها وقد يعاقبون أو يعزلون مسؤولين من أجل وقوع أحدهم في لحن لغوي ما واتخذ بعض الخلفاء المسلمين إجراءات من أجل أن تظل العربية سليمة اثر حدوث العلاقات اللغوية العربية الأعجمية بعد الفتوحات الإسلامية بل نستطيع أن نقرر أن هذه المراقبة ظهرت منذ العصر الجاهلي من خلال بعض المناظرات الشعرية التي وصلتنا أو بعض الهفوات العروضية التي كان يتورط فيها جبلة بعض الفحول من الشعراء البدو.

ولذلك فما ان ظهر علم النحو في العرب منذ العقد الخامس من القرن الأول الهجري حتى اهتم الناس به أي اهتمام ومدحوه ووصفوه بأنه أفضل العلوم -بعد كتاب الله - فيه يعرب الكلام ويقرأ القرآن وعليه تروى الأخبار والأشعار، وبه يزين الموء كلامه ويحلى لفظه)) العاهل⁶⁹ ومدحه أحد الشعراء⁷⁰:

الفحو يطلق من لسان الألكن والمرء تعظمه إذا لم يلحن

فإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مغيم الألسن

وقاوم اللغويون بشدة وعنق لغويين وقاسيين كل انحراف عن السلوك اللغوي العام أثناء
توظيف قاعدة أو جهة من جهات الكلام جنوحاً عن القواعد العامة، فزرعوا الانضباط الفني
واللغوي في الشعراء المخضرمين والإسلاميين اللذين يعتد بهم في الاجتماع للعربية ولا أحد
منا لا يتذكر المشادات العنيفة بين الفرزدق وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، لأن
المحدثين القدماء من فطاحل العربية رغبوا أن يقيسوا على اشتقاق غيرهم حتى ولو كان في
ذلك القياس ما ينافي مطرده وكثرته، من ذلك ما حكاه الخليل بن أحمد من أن رجلاً
أنشده⁷¹ ترافع العز بنا فارفعنا

فقال له الخليل: ليس هذا شيئاً، فقال الرجل: كيف جاز للعجاج أن يقول:

تقاعس العز بنا فأقعنسا

ولا يجوز لي؟

وأول ملاحظة بين ((ارفعنا)) و((اقعنسا)) تبين لنا الخطأ الصوتي الجسيم الذي
وقع فيه هذا الرجل، حيث جمع بين حرفين حلقيين متتابعين، ثم إن الهفوات اللسانية التي
سبقت تقعيد القواعد كان مغفورا، لأن العربي كان ينطق على سجيته دون مرشد ولا وازع
علمي، ومع هذا لا يفهم أن الشاعر العربي كان مطلق الحرية اللسانية والفنية في توظيف
الكلمات وربطها بالمضمون المراد التعبير عنه،

فهذا سويد بن كراع يصف نفسه وهو مقتحم على أبواب الشعر⁷²

أبيت بأبواب القوافي كأنها اهدي بها سرى من الوحش نزعا

أكالئها حتى اعرس بعدما يكون سحيرا أو بعيد فأهجعا

إذا خفت أن تروي علي وددتها وراء التواقي خشية أن تطلعا

وقال ديين الرقاع⁷³

وقصيدة قدبت اجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها

نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافة منآها

الإحالات:

-
- 1- طبقات الشعراء لابن سلام 9/1
 - 2- السابق ص: 10
 - 3- السابق ص : 10
 - 4- السابق ص: 11
 - 5- مجلة مجمع اللغة العربية ص: 7 عدد 2
 - 6 - الآداب السامية ص: 107
 - 7- العربية عبر القرون ص: 29
 - 8- السابق، ص: 31
 - 9- السابق، ص: 32
 - 10- تاريخ اليمن تقديم ص: 202
 - 11- السابق ص: 203
 - 12- طبقات الشعراء لابن سلام 11-1
 - 13- السابق ص: 14
 - 14- قصدنا القراءة في هذا الكتاب الذي يعد من أقدم ما وصلنا في الموضوع
 - 15- الأمثال ص: 38
 - 16- السابق ص: 38
 - 17- السابق ص: 38
 - 18- السابق ص: 38
 - 19- السابق ص: 39
 - 20- السابق ص: 41 - 42
 - 21- راجع سر صناعة الأعراب 56/1

-
- 22- الأمثال ص: 55
- 23- السابق ص: 63 - 64
- 24- السابق ص: 46 - 47
- 25- طبقات الشعراء لابن سلام 3/1
- 26- السابق ص: 24
- 27- السابق ص: 24
- 28- السابق ص: 24-25
- 29- السابق ص: 24-25
- 30- السابق ص: 4
- 31- السابق ص: 25
- 32- عيون الأخبار م 1 / ج 2 / 130
- 33- طبقات الشعراء لابن سلام ص: 25
- 34- العقد الفريد 5/ 283
- 35- السابق ص " 275
- 36- مقدمة ابن خلدون ص: 581
- 37- سورة الطور: 30
- 38- الفاضل للمبرد ص: 5
- 39- الآداب السامية ص: 119
- 40- السابق ص: 133
- 41- السابق ص: 136-137
- 42- القياس ص: 19
- 43- السابق ص: 14

-
- 44- الفاضل للمبرد ص: 4
45- العقد الفريد 274/5
46- الفاضل ص: 10
47- معجم غريب القرآن ص: 236
48- يراج ع الفهرست وبن نديم ص : 36-42
49- السابق ص: 37
50- أنظر فقذ كتاب العين للخليل بن أحمد أو فهرس كتاب سيبويه وانظر أيضا
51- فضائل القرآن ص: 28
52- العقد الفريد 491/3
53- فقه اللغة لابن فارس ص: 78
54- السابق ص: 78 - 81
55- خطوط المصاحف ص: 46 - 47
56- السابق ص: 32
57- السابق ص: 32-33
58- الآداب السامية ص: 135
59- السابق ص: 135
60- السابق ص: 138
61- الكتاب 307-303/4
62- السابق ص: 307
63- مركز دراسات الوحدة العربية ص: 51
64- الآداب السامية ص: 133
65- القياس ص: 21

⁶⁶ - الجهود اللغوية خلال القرن الرابع عشر الهجري ص: 39

⁶⁷ - السابق ص: 40

⁶⁸ - السابق ص: 60-62

⁶⁹ - الفاضل ص: 4

⁷⁰ - السابق ص: 4

⁷¹ الشعر والشعراء ص: 16

⁷² - السابق ص: 17

⁷³ - السابق ص: 17

المراجع:

1- اصلاح المنطق لابن السكيت

تحقيق شاکر وعبد السلام هارون، دار المعارف (مصر)

2- الإنصاف في مسائل الخلاف : ابن الأنباري

تحقيق عبد الحميد محي الدين : المكتبة التجارية الكبرى (مصر)

3- أفصح المسالك: ابن هشام ط: 1949

تحقيق محي الدين دار السعادة (مصر)

4- البحر المحيط: ابن حيان الغرناطي ط: 1328 هـ مطبعة السعادة (مصر)

5- الإيضاح في علل النحو: الرجاسي تحقيق: مازن الكبارك دار العروبة القاهرة

6- البيان والتبيين الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي القاهرة

-
- 7- تاريخ اليمن القديم: عبد القادر بافقيه، ط: 1973 مطبعة الحرية بيروت
 - 8- التيسير في القراءات السبع: الداني، اسطنبول ط: 1930
 - 9- الجمهرة ابن دريد، ط: 1351 هـ حير باد طبعة بالأوفيس
 - 10- الحجة في القراءات السبع: ابن خالويه، ط: 1971
 - 11- الخصائص: ابن جني
تحقيق محمد النجار دار الهدى، بيروت
 - 12- ديوان حميد بن ثور الهلالي - صنعة الأستاذ عبد العزيز الميمني
الدار القومية القاهرة
 - 13- ديوان زهير، ط: 1964 الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة
 - 14- ديوان امرئ القيس، تحقيق: أبو الفضل ابراهيم دار المعارف مصر
 - 15- ذيل الأهالي والنوادر، أبو علي القالي، دار الفكر، بيروت
 - 16- سر صناعة الاعراب: ابن جني، ط: 1954
تحقيق: لجنة من الأساتذة مطبعة مصطفى البابي الحلبي
 - 17- شذور الذهب: ابن هشام
تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر
 - 18- شرح ابن عقيل، ط: 14 / 1965 مطبعة السعادة مصر

-
- تحقيق: محي الدين عبد الحميد
- 19- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ط: 1/ 1951 القاهرة
- تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون
- 20- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: الأتباري
- تحقيق عبد السلام هارون: دار المعارف مصر
- 21- الشعر والشعراء: ابن السلام، دار النهضة العربية بيروت
- 23- طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي، ط: 1973
- تحقيق: أبو الفضل، دار المعارف مصر
- 24- العقد الفريد: ابن عبد ربه، لجنة التأليف وترجمة (أحمد أمين وصاحبه)
- 25- الفاضل: المبرد، ط: 1956
- تحقيق عبد العزيز الميمني/ دار الكتب العربية
- 26- الصاحبى في فقه اللغة، ابن فارس ط: 1964
- تحقيق: د. مصطفى الشويمي - بيروت
- 27- الهرست ابن النديم، الطبعة المصرية
- 28- قاموس الألفاظ والإعلام القرآنية: محمد إسماعيل إبراهيم ط: 1/ 1961
- دار الفكر العربي

-
- 29- الكامل: المبرد
تحقيق أبو الفضل والسيد شحاتة نهضة مصر، القاهرة
- 30- الكتاب، سيبويه،
تحقيق هارون الهيئة المصرية للكتاب
- 32- مجالس تعلق، تحقيق هارون، دار المعارف مصر
- 33- المقر: ابن عصفور، تحقيق أحمد عبد الستار وعبد الله الجبور بمطبعة
المعادي بغداد
- 34- مروج الذهب: المسعودي دار الأندلس، بيروت
- 35- مغني اللبيب: ابن هشام/ تحقيق: محي الدين مطبعة المدني القاهرة
- 36- المفضليات: المفضل الطيبي: تحقيق: شاکر وهارون مطبعة المدنس القاهرة
- 37- الموشح: المرزباني، تحقيق محمد علي البجاوي، ط: 1965 دار النهضة
مصر.
- 38- نزهة الألباء: ابن الأبناري ط: 1970/2 تحقيق: روم لغهايم ط: 1964
المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
- 39- نور القبس: المرزباني واختصار الیغموري

-
- 40- القياس في اللغة العربية، محمد الخضر حسين الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 1986 الجزائر
- 41- بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب، عبد الجليل مرتاض ط: 1988/1 مؤسسة الأشرف - بيروت
- 42- اللغة العربية عبر القرون: د. محمود حجازي، دار الكتاب العربي القاهرة
- 43- الآداب السامية، محمد عطية الأبرشي ط" 1984/2 دار الحداثة، بيروت
- 44- الجهود اللغوية خلال ق: 14 هـ. د. عفيف عبد الرحمان ط: 1981
- 45- ضرائر الشعر، ابن عصفور تحقيق إبراهيم محمد ط، 2 دار الأندلس،
- 46- المفصل في علم العربية، الزمخشري، ط: 2 دار الجبل، بيروت
- 47- ديوان النابغة الديباني: تحقيق: د. شكري فيصل، دار الفكر، بيروت
- 48- ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ط: 1980 دار بيروت للطباعة والنشر
- 49- العين، الخليل ابن أحمد تحقيق: د. عبد الله درويش ط: 1967 مطبعة العاني بغداد
- 50 العمدة: ابن رشيقي، تحقيق محي الدين ط: 1963/3
- 51المزهر: السيوطي تحقيق: جاد المولى وصاحباه، مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر

-
- 52- مقدمة ابن خلدون: مطبعة مصطفى مصر
- 53- النوادر: أبوزيد الأنصار المطبعة الكاثوليكية ط: 1894
- 54- اللغة الشاعرة: عباس محمود العقاد
- 55- نقد الشعر: قادمة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى الخانجي مصر
- 56 - التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية: مراكز دراسات الوحدة العربية ط1 1982 بيروت
- 57- طبقات الشعراء: ابن سلام، تحقيق شاكر ط: 1974 مطبعة المدني القاهرة
- 58- كتاب الأمثال: أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي
- 59- الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم، لبيب السعيد، دار الكتاب العربي، للطباعة والنشر، القاهرة
- 60- عيون الأخبار: ابن قتيبة دار الكتاب العربي - بيروت
- 61- لسان العرب: ابن منظور (طبعة مصورة عن طبعة بولاق) الدار المصرية للتأليف والترجمة
- 62- فضائل القرآن: ابن كثير ط: 1966 دار الأندلس بيروت.